في برنامج مسامرات ثقافية والذي يبث اليوم على «الوسط أون لاين»

سرحان: «حجم الخطابات في التراث يكشف حيوية البنى المعرفية

الوسط - حبيب حيدر

○ في هذا اللقاء لفرصة لنا أن نحاور الأكاديمي المتخصص في اللسانيات وتحليل الخطاب بالجامعة الأردنية الناقد هيثم سرحان، وذلك في إطار قراءته للمدونة السردية القديمة، والـذي وجد أن حجم الخطابات، في التراث، يكشف عن حيوية البنى المعرفية وخصوبة السياقات وفاعلية المتخيّل الثقافي»

تتلخص حكاية هذا اللقاء في أنه بينما كنت أتصفح باحثاً في جنة السرد وآليات القراءة، عثرت على كتاب «الأنظمة السردية» لهيثم سرحان فشدني «وتأملت أن أعرّف قرّاء الملحق الثقافي «فضاءات» بهذا الجهد من خلال لقاء أحاول فيه تسليط الضوء على سر ذهاب الرجل نحو المدونة السردية، وملامح المنهج السيميائي الذي شدّه أن يقارب به هذه المدونة، وتبشيرات هذا المنهج وفتوحاته، وأهم مكتشفاته في المدونة العربية وأهم التمثلات التي وجدها في المدونة خلال رحلته النقدية.

○ عكفتم على قراءة المدونة السردية عبر كتابكم «الأنظمة السيميائية» ما سرّ ذهابكم نحو المدوّنة السردية القديمة وقراءتها سيميائيًّا؟

- أعتقد أنّ المدونة السردية العربية أعمق أثراً، وأغنى نصوصاً، وأكثر تنوعاً، وأشمل تمثيلاً من المدونة الشعرية التي تراجع تأثيرها المعرفي بدءاً من الإسلام. ولعل فحصاً دقيقاً للعبارة الذائعة «الشعر ديوان العرب» سيفضي إلى أنّ الشعر كان ديـوان العرب وسجلاً لمآثرهم وأخبارهم وأيامهم وبطولاتهم في الجاهلية. أما الإسلام، وبفعل المثاقفة اللسانية والمعرفية مع الشعوب الأخرى، فقد افتتح ديواناً جديدا هو «النثر» حيث حاجة الدولة إلى منظومة معرفية جديدة مؤسسة على العقل والمعاني الدقيقة خلافاً للشعر المؤسس على الانفعالات والغموض والمبالغات. طبعاً هذا الكلام لا يعني بأي حال الانتقاص من أهمية الشعر ومكانته في الوجدان الثقافي العربي.

النصوص علامات مفتوحة على العالم

وإذا كان أبو العباس المبرد قد سوّغ استشهاده بأشعار المولدين بـ«أنها أشكل بالدهر» فإنّ المدونة السردية العربية قد أصبحت، بدءاً بالإسلام، أقدر على تمثيل هواجس الإنسان ومشكلاته وأحلامه؛ لأنها أشكل بالدهر.

أما ما يتعلّق بالشطر الثاني من السؤال فالجواب عنه أنّ القراءة السيميائية تتجاوز الأنساق إلى السياقات، فهي تتعامل مع النصوص بوصفها علامات مفتوحة تحيل إلى المرجع والعالم خلافاً للبنيوية التي تنظر إلى النصوص بوصفها علامات مغلقة لا تحيل إلاّ إلى البنية، وخلافًا للتفكيكية التي تنظر إلى النص بوصفه مجموعة دوالّ لا تملك أية إحالة أو مرجع، وخلافاً للنقد الثقافيّ الذي يبحث في الظواهر والنصوص عن أنـسـاق مضمرة طلباً لرؤى كلية.

هيثم سرحان

○ مـا حـدود المدونات السردية الـتـي تـم قراءتها وتـفـحـصـهـا في كتابكم «الأنظمة السيميائية في الـسـرد الـعـربـيّ القديم»؟

- حاولت الاشتباك مع المدونة السردية بـحـدودهـا التاريخية، والأسطورية، والأدبية، والقُدسيّة (المُقدّس)، والإنسانية؛ للكشف عن تمثّلات الأسطورة، والسُلطة، والأنسنة، والجنس. ولعلّ هذه التجربة منحتني فرصة الاطّلاع على التقاطعات المعرفية بين الأدب وحقول المعرفة الأخرى، وهي تقاطعات غنية تقدّم للباحث رؤى وتصوّرات ضافية. وأشير مثلاً إلى كتب الأخبار التي تُعدُّ كتباً في الرواية التاريخية في حين أنها ملآى بالمفاهيم المنتمية لعالم الأدب، وهذه القضية تفتح إشكالية التأليف الموسوعيّ، في الثقافة العربية القديمة، على مصراعيها، وإذا أخذنا، على سبيل التعيين، كتابي «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقيّ» و«المنمّق في أخبار قريش لابن حبيب البغداديّ» سنجد أنفسنا أمام مادة معرفيّة غاية في الثراء.

○ في ظل تعدد المداخل المنهجية، ما أهمّ ملامح المنهج السيميائيّ الذي اخترتموه في البحث؟

- المنهج السيميائي من مناهج «ما بعد البنيوية»، وهي المناهج التي ترفض مبدأي انغلاق البنية وموت المؤلف، وبهذا المعنى فإنّ هذه المناهج حاولت استكمال مبدأ البنية، الذي قالت البنيوية بانغلاقه، من خلال البحث في مقاصد المؤلف، وسياقات العلامات، والأثر الذي تحدثه دلالات النص في المتلقي تمهيداً لتحقيق الاستجابة، علاوة على انشطار دوالّ البنية وتشظيها.

ولعلّ السيميائية تقف موقفاً متوسّطاً بين هذه المناهج؛ فهي بنيوية من حيث إنها تقوم على رصد العلامات النصّية، وهي سياقيّة من حيث إنها تسعى للكشف عن سياقات العلامات ودلالاتها في الثقافة والمرجع والوجود، وهي ابستمولوجية من حيث إنها تقدّم تفسيراً لإنتاج المعنى. وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ مخطط جاكبسون هو محور الجدل بين المناهج النقدية. وكبقية المناهج فإنّ السيميائية، بوصفها منهجاً، قد تعرّضت للتصدّع؛ إذ تشكّلت داخلها اتجاهات متعددة؛ فهناك اتجاه السيميائيات المنطقية ويمثّلها «سوندرس بورس»، وهناك السيميائيات التواصلية ويمثّلها التداوليون وخاصة شارل ويليام موريس، وهناك السيميائيات البنيوية التي يمثّلها رولان بارت وجوليا كرستيفا، وهناك السيميائيات التأويلية التي يمثلها توفيق بكار وغريماس وعبدالفتاح كيليطو، وهناك سيميائيات التلقي ويمثلها أمبرتو إيكو، علاوة على السيميائيات الثقافية التي ترى أنّ فعل الثقافة هو مولّد الأنظمة السيميائية وتمثّلها مدرسة موسكو.

وبهذا المنهج المستند إلى علامات النصّ يمكن تفسير المعنى الممتدّ من مقاصد المؤلف مروراً ببنية النصّ وسياقات العلامات وانتهاء بتأويل القارئ.

○ حفل النظر للتراث العربي بالتلازم بين الشعر والمنظور الشفاهي، ما حدود التلازم بين الشعرية والشفاهية في المدوّنة العربية القديمة وما أثره في راهن الثقافة العربية الآن؟

- لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هناك عوامل وأسباباً أدّت إلى صعود الشعر، ومن أبرزها ما أشرت إليه وهو الشفاهية، وهناك عامل آخر أدى